

الحمد لله رب العالمين

اللهم اسْعِنْ

صُبْرَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ

الخزعاني

معاذة بيت عبد الله

دار الزكارة

دمشق - سوريا

(٣)

معاذة بنت عبد الله

* قال يحيى بن معين :
معاذة : ثقة حسنة .

* عابدة ، زاهدة ، فقيره ، لها أقوال مشهورة ، صابرية ، شاكرة لله عز وجل .

مُعَاذَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَدُوِيَّةُ

مناجاة :

* « يا نفس ، النوم أمامك ، لو قدمت لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور » .

يمثل هذه العبارة ، كانت معاذة بنت عبد الله العدوية البصرية أم الصهباء^(١) ، تناطح نفسها إذا ما غلبتها النوم وهي غارقة في عبادتها ومتناجاتها لله عز وجل .

* كانت معاذة من النساء التابعيات ذوات الفضل والمكانة ، نشأت فريدة من بناتي الصحابة الكرام ، تهلهل من معين علمهم الصافي ؛ الذي أخذوه عن رسول الله ﷺ .

* وقد تخرجت معاذة من مدرسة أم المؤمنين عائشة وعلي بن أبي طالب وهشام بن عامر – رضي الله عنهم – ، حيث رأتهم وروت عنهم .

* كما حدث عنها رؤوس العلم والرُّهْد في عصرها منهم : أبو قلابة الجرمي ، واسحاق بن سويد ، وأبيوب السختياني^(٢) وأخرون .

(١) سر أحلام النبلاء (٥٠٨/٤) ، وطبقات الشعراني (٦٥/٩) ، والأعلام (٢٥٩/٧) .

(٢) أبيوب بن أبي ثيبة كيسان السختياني ، أبو لكر التابعي البصري ، ثقة بنت حجة ، =

وإذا أردت أن تعرف مقدار مكانتها في عالم الحديث والعلم ، فاعلم
أن حديثها متحجج به في الصحيح كأها ، وقد وثقها شيخ المحدثين يحيى بن
معين — رحمة الله — .

* وقد بلغت معادة — رحمها الله — مبلغاً عظيماً في التفقه بالدين ،
والنسل والعبادة ، ونهلت من معين القرآن الكريم والحديث الشريف
 شيئاً مباركاً ، جعل الحكمة تجري على لسانها ، وتبعدت من قلوبها لتحتل
قلوب الآخرين وتستقر في نفوسهم ، وتصقل حبلاً قلوبهم .

* وكانت — رحمها الله — مولعة بقرآن الفجر الذي قشده الملائكة ،
إذ تصبح وتمسي على قراءة القرآن الكريم وترتيله ، وقلبها يلهج بذكر الله
عز وجل ، ولم يكن يشغلها عن هذا أي شيء حتى في يوم زفافها .

* * *

زواجهما :

* زوج معادة العدوية هو صيحة بن أشيم ، أبو الصهباء العدوية
البصركي ، الزاهد العابد ، السيد القدوة ، التابعي الجليل ، صاحب
الكرامات الثابتة . وكلا الزوجين يحرر في العلم والفقه ، وعلم في الورع
والزهد ، وكان لزواجهما قصة تؤنس النفوس ، وتحلو القلوب لما فيها من

= سيد فقهاء عصره ، ولد سنة (٦٦ هـ) ، وكان من النساك الزهاد ، ومن كبار
الفقهاء العقاد ، ومن حفاظ الحديث الشريف ، روى عنه نحو (٨٠٠) حديث ،
توفي سنة (١٣١ هـ) ولد (٦٥ سنة) — رحمة الله تعالى — .
(تقرير التهذيب : ٨٩/١) ، و (الأعلام : ٣٨/٢) .

طيب الحديث الذي ظلَّ الناس - عصر ذاك - يداولونه فيها بينهم حيناً من الدهر ، ومن ثُمَّ نقلوه إلى غيرهم ليقى تحالداً إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى .

فلنشهد أحداث هذا الزواج المبارك ، لذين العلَّمين الكريمين .

* لما كان يوم زفاف معاذة العلوية ، وحينها أهديت إلى زوجها صيلة بن أشيم ، جاء ابن أخي صلة ، فمضى به وأدخله الحمام ، ثم ألبسَه أجمل الثياب ، وأدخله على معاذة في بيت يتضوئ بالطيب ، وتبعه منه أجمل رواح البخور والعطور ، وقد هُنِيَّتْ الْبَيْتُ كأجمل ما تكون البيوت .

* ولما حصار الزوجان معاً في البيت ، ألقى صلة السلام على معاذة ، ثم قام يصلى ، فقامت معه فصلت أيضاً ، واستغرقا في الصلاة ، فلم يزلا يصليان وبصليان حتى وافاهما عمود الفجر ، وتنفس الصبح ، ونسيا أحهما في ليلة الزواج .

* وفي الصباح أتاه ابن أخيه يتفقد أحواله ، فعلم أنه ظلَّ يصلى حتى أسرف الصبح ، فقال لعمه : أي عم ، أهديت إليك ابنة عملك الليلة فقمت تصلي وتركتها ؟ .

قال صلة : يا بن أخي ، إنك أدخلتني أمس بيتأً ذكرتني به النار ، ثم أدخلتني بيتأً ذكرتني به الجنة ، فما زالت فكرتني فيما حتى أصبحت .

(١) عن صفة العفورة (١٤٤/٣ و ١٤٥) بنصرف ، وانظر ربيع الأبرار (٢٨٥/٥) ، والبداية والنهاية (١٨١٩) .

* على مثل هذا النهج من العبادة ، تابعت معاذة وزوجها حياتهما في طلب مرضاعة الله عز وجل ، وقد رسمت معاذة صورة حية عن عبادة زوجها فقالت : كان أبو الصهباء يصلى حتى ما يستطيع أن يأتي فراشه إلا زحفا^(١) .

* وحدث ابن شوذب قال : قالت معاذة العدوية : ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلى فراشه إلا جبوا ، يقوم حتى ما يقر في الصلاة^(٢) .

* وقد وصفته أيضاً ، ووصفت أصحابه الذين تعاقدوا على محبة الله عز وجل ، فقالت : كان صلة وأصحابه إذا التقوا عائق بعضهم بعضاً .

* وكانت - رحمها الله - تأتني بزوجها في عبادته حتى غدت إحدى النساء اللاتي يُضرب المثل بهن في العبادة .

* * *

من فرائد أقوالها :

* المؤمن الخالص لله عز وجل من أطيب الناس عيشاً ، وأنعمهم بالأ ، وأشرفهم صدراً ، وأسرّهم قلباً ، وقد كانت معاذة - رحمها الله - من المؤمنات الورعات ، ومن الناسكات المترهدات إذ تحبي الليل كله في العبادة ، فجربت الحكمة على لسانها جريان السلسيل .

(١) الطبقات (١٣٦/٧) ، وسر أعلام البلا (٤٩٧/٣) .

(٢) المعرفة والتاريخ للبوسي (٧٩/٢) .

* وقد أثرت عنها أقوالٌ تشير إلى فصاحتها وبلاعتها وتمكنها من ناصية الكلام ، كما تدل على مدى حصلتها الوثيقة بالله سبحانه وتعالى ، فمن أقوالها :

عجبت لعينِ تمامٍ ؛ وقد علمت طول الرقاد في ظلمِ القبور .

* وكانت أقوالها لا تخلو من النصيحة والتحذير من الدنيا ، فقد قالت لأمرأة أرضعتها :

يا بنتي ، كوني من لقاء الله عز وجل على حذري ورجاء ، فإني رأيت الراجي له محقوقاً بحسن الزلفي لديه يوم يلقاءه ؛ ورأيت الخائف له مؤملاً للأمان يوم يقوم الناس لرب العالمين .

* وفي تحذيرها من الدنيا وعدم الغرور والركون إليها تقول : صحيحت الدنيا سبعين سنة ، فما رأيت فيها فرقة عينٍ فقط .

* * *

عبداتها وصلاحها :

* كانت معاذة قد وهبت نفسها للعبادة والصلة ، فلا تكاد تخلو إلى نفسها إلا وهي على موعد مع الصلاة ، فقد كانت تخفي الليل كلَه بالصلوة والذكر والتسبيح ، وكانت تصلي في كل يوم وليلة سبعة ركعات ، وتقرأ من القرآن كل ليلة^(۱) ، فإذا جاء التهار قالت :

(۱) وصف الله عز وجل الزوجات الصالحات فقال : ﴿فَالصَّالِحَاتُ فَانِّيَ حَفَظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفَظَ اللَّهُ...﴾ [النساء : ۳۴] .
فالقائلات : هن الطائعات .

هذا يومي الذي أموت فيه . فما نائم .

فإذا جاء الليل قالت :

هذه ليلي التي أموت فيها . فلا نائم حتى تصبح ؟ فإذا غلبتها النوم ،
قامت فجالت في الدار تعاتب نفسها ، ثم لا تزال تدور إلى الصباح
تخاف الموت على غفلة ونوم ^(١) .

* وكان إذا هجم الشتاء ببرده على الناس ، تعمد معادة إلى ليس
الثياب الرفاق حتى يكتنفها البرد من النوم ، ولا تكامل عن العبادة
والملاحة ، وكان إلى جانبها زوجها يجتهد في عبادته أيضاً حتى ضرب
المثل بهما ، قال أبو السوار العدوبي : بنو عدي أشد أهل هذه البلدة
— البصرة — اجتهاداً ، هذا أبو الصهباء لا ينام ليلاً ولا يفتر نهاره ،
وهذه امرأته معادة ابنة عبد الله لم ترفع رأسها إلى السماء أربعين عاماً .

* وكانت معادة مع عبادتها ونسكها ، فقيمة عاملة ، قال عنها
بيحيى بن معين : معادة ثقة حججه ، وذكرها ابن حيان في الثقات وأنى
عليها . أضف إلى ذلك أن حديثها مروي في الكتب المتنية محتاج به .

* * *

صَبِرُهَا وَشُكْرُهَا لِللهِ :

* في سنة ثنتين وستين للهجرة ، استشهد زوج معادة وابنهما في

= واللافظات للغيب : أي الباقي يحفظ غيبة أزواجيهن ، فلا يخنه في نفس أو مال ،
وهذا أعني ما تكون عليه المرأة ، وكانت معادة العدوية من هذا الصنف — رحمة الله

مِيْجَسْتَانِ فِي قِتَالِ الْتُرْكِ ، وَمَا وَصَلَهَا الْخَيْرُ ، لَمْ تُلْطِمْ وَجْهَهُ ، وَلَمْ تَعْرَقْ
ثُوْبَاهُ ، وَإِنَّمَا صَبَرَتْ وَاسْتَرْجَعَتْ^(١) ، وَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ عَنْدَهَا لِلتَّعْزِيَةِ ،
وَلَكِنَّ مَعَاذَةً – رَحْمَهَا اللَّهُ – قَالَتْ لَهُنَّ :

مَرْحَباً بِكُنْ ، إِنْ كُنْتُنْ جَنَّتُنْ لِلْهَنَاءِ ، وَإِنْ كُنْتُنْ جَنَّتُنْ لِغَيْرِ ذَلِكِ
فَارْجِعُنِي^(٢) .

* وَعَجَبَ النِّسُوهُ مِنْ صَبَرَ مَعَاذَةً ، وَخَرَجَنَ وَهُنَّ يَتَعَدَّدُنَّ عَمَّا آتَاهُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ الصَّبْرِ ، وَزَادَهَا ذَلِكُ الْمَوْقِفُ فِي أَعْيُنِهِنَّ مَكَانَةً
وَرُفْعَةً ، فَأَكْرَمَهُنَّهَا وَمَوْقِفَهُنَّهَا ! .

* وَحَدَّثَتْ أُمُّ الْأَسْوَدِ بُنْتُ زَيْدَ الْعَدُوِيَّةَ – وَكَانَتْ مَعَاذَةً قد
أَرْضَعَتْهَا – فَقَالَتْ :

قَالَتْ لِي مَعَاذَةً لَمَا قُتِلَ أَبُو الصَّهْبَاءِ وَقُتِلَ ولَدُهَا :

وَاللَّهُ يَا بَنِيَّهُ مَا مَحِبَّتِي لِلبقاءِ فِي الدُّنْيَا لِلذِّيذِ عِيشُ ، وَلَا لِرُوحِ قَسِيمٍ ،
وَلَكِنَّ وَاللَّهُ مَا أَحَبَّ البقاءَ إِلَّا لِأَنْقُرُبَ إِلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَسَائِلِ ، لِعَلَهُ
يَجْمِعُ بَنِي وَبَنِي أَبِي الصَّهْبَاءِ وَابْنِهِ فِي الْجَنَّةِ^(٣) .

* وَطَبَّقَتْ مَعَاذَةً هَذَا الْقَوْلَ عَمَلِيًّا ، فَلَمْ تَكُنْ تَمُرُّ عَلَيْهَا لِيَلَهُ إِلَّا وَهِيَ
تَدْعُو رَبَّهَا خَوْفًا وَطَمْعًا تَرْجُو لِقَاءَهُ وَتَأْمُلُ رَحْمَتَهُ ، وَمِنْذَ أَنْ اسْتَشْهِدَ

(١) « اسْتَرْجَعَتْ » : قَالَتْ : إِنَّا لَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٢) الطِّفَقَاتُ (١٢٧/٧) ، وَالْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ (١٨/٩) ، وَسِرِّ أَعْلَامِ الْبَلَاءِ (٥٠٩/٤) .

(٣) مَصَارِعُ الْعَشَاقِ (٢٠٨/٦) .

زوجها لم تتوسد فراشاً حتى ماتت ، تحفة أن تشعر بين الفراش فتتسنى
ما عاهدت الله عليه من حسن الرجاء .

* * *

كرامة باهرة معاذة :

* في كتابه « تهذيب التهذيب » أورد ابن حجر - رحمة الله -
كرامة باهرة معاذة - رحمها الله - تشير إلى مكانتها في عالم العبادة ،
فذكر أن رجلاً من أهل البصرة قال :

أتيت معاذة فقالت : إني اشتكت بطنني ، - وكان قد وُصِّفَ لي
نبيَّ الحرَّ - فأتتها منه بقدح فوضحته فقالت :

اللهم إنْ كنْتَ تعلم أنْ عائشةَ - أمُ المؤمنين - حدثتني أنَّ النَّبِيَّ
صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ نهى عن نبيَّ الحرَّ فاكفينيه بما شئتَ .

قال : فانكفاً القدر وأهريق ما فيه ، وأذهب الله تعالى ما كان بها .

* * *

وفاتها :

* عاشت معاذة بعد وفاة زوجها أكثر من عشرين سنة ، وهي في
كل يوم يمر عليها تستعد لقاء الله عز وجل ، وتأمل أن يجمعها بزوجها
وابئه في رحمته .

* وقد رُوي أن معاذة لما حضرها الموت بكث ثم ضحكت فقيل

هـ : مـ البـكـاء ، وـمـ الصـحـلـك ١٩ .

قالـتـ : أـمـاـ الـبـكـاءـ الـذـيـ رـأـيـتـ فـإـنـيـ ذـكـرـتـ مـغـارـقـةـ الصـيـامـ وـالـصـلـاـةـ
وـالـذـكـرـ فـكـانـ الـبـكـاءـ لـذـلـكـ .

وـأـمـاـ التـبـسـمـ وـالـصـحـلـكـ فـإـنـيـ نـظـرـتـ إـلـىـ أـلـيـ الصـهـبـاءـ قـدـ أـفـيلـ فـيـ
صـحـنـ الـذـارـ ، وـعـلـيـهـ حـلـتـانـ تـحـضـرـاـوـانـ وـهـوـ فـيـ تـفـيرـ ، وـالـلـهـ مـاـ رـأـيـتـ لـهـمـ فـيـ
الـدـنـيـاـ شـبـهـاـ ، فـضـحـكـتـ إـلـيـهـ ، وـلـاـ أـرـأـيـ بـعـدـ ذـلـكـ أـدـرـكـ فـرـضاـ .

فـكـانـ ذـلـكـ ، وـتـوـفـيـتـ قـبـلـ أـنـ يـدـخـلـ وـقـتـ الـصـلـاـةـ .

* وـكـانـ وـفـاةـ مـعـاذـةـ سـنـةـ (٨٣ـ هـ) (١) .

* وـبـذـلـكـ طـوـيـتـ صـفـحـةـ اـمـرـأـةـ مـنـ النـسـاءـ التـابـعـيـاتـ الصـالـحـاتـ
الـقـاتـاتـ الـعـابـدـاتـ ، غـيـرـ أـنـ سـيـرـتـهاـ لـمـ يـطـوـيـهـاـ التـارـيخـ بلـ نـشـرـ فـضـائـلـهـاـ
لـتـكـونـ قـدـوةـ لـلـنـسـاءـ .

* وـرـحـمـ اللـهـ مـعـاذـةـ الـعـدـوـيـةـ ، وـأـعـادـهـاـ مـنـ النـارـ ، وـجـزـاهـاـ خـيـرـ الـجـزـاءـ ،
وـأـلـحـقـهـاـ بـالـصـالـحـينـ ، وـصـدـقـ اللـهـ إـذـ يـقـولـ : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامُ رَبِّهِ
جَنَّانٌ﴾ [الـرـحـمـنـ : ٤٦] .

* * *

(١) سـيـرـ أـعـلامـ الـبـلـاءـ (٤٠٩/٤) ، وـالـأـعـلامـ (٢٥٩/٧) ، وـمـصـارـعـ الـعـشـاقـ
(١٠١/٢٠٩) وـقـبـلـ تـوـفـيـتـ سـنـةـ (١٠١ـ هـ) رـحـمـهـ اللـهـ .